للمثال الكامل الذي وصفهُ مورل . وفي ذلك ما فيهِ من جعل الناس كلهم اعتياديين ومنع تولد الشذوذ

ولم يرتقِ الانسان من حالة الهمجية عندما كان يسكن الغابات ويصل الى حالهِ الحاضرة الاَّ بفضل الشواذ . وللانحراف عن الاصل وجهان احدهما قبيح ضار والآخر جميل نافع

فلنتخلص من الاعجاب بالانسان الاعتيادي ولنتعود النظر الى الشاذين بلا خوف ولا احتقار ولندافع عن الضارين منهم معاملين اياهم بالشفقة لا بآلات التعذيب التي ورثناها عن القرون الوسطى ولنُعِد الى الشاذين النافعين حقوقهم فقد نفحوا الانسانية بكثير من النعم والمواهب

نسيم يرباري

اللغة المكتوبة واللغة المحكية

لا مراء في أنَّ للُّغة العربية الفصحى او العربية المكتوبة جانبًا امنع من حمى كليب واعزّ من جبهة الأسد فما رَمَقها قطُّ واحد بنظرةٍ او رماها بزهرةٍ الاَّ صلاهُ انصارها نارَ حربٍ زبون يهون عندها شرب المنون ولو استطاعوا لقلعوا عينيهِ وقطعوا يديهِ . إذًا فليخفّض حضرة القاضي ولمور عن نفسهِ وليقس ما لقيهُ في يومهِ بما اصاب غيرهُ في امسهِ . فيرى في الحال صحة الخبر . ويصغر في عينهِ الخطب على الأثر ويعلم انهُ لم يكن اوَّل سارٍ غرَّهُ قمر

اشار المقتطف في باب التقريظ والانتقاد من الجزء الماضي الى الكتاب الذي وضعهُ حضرة القاضي ولمور في اللغة الانكليزية وجمع فيهِ اللغة المحكية في الديار المصرية قاصدًا بذلك تسهيل نشر العلوم والمعارف في اللغة العربية (المحكية) وتقريب منالها على الاجانب واشار على الصحف العربية بأن تأخذ أُخذهُ وتنبذ اللغة المكتوبة وتستبدلها بالمحكية حتى اذا عملت باشارتهِ وضافرها على ذلك اهل الحل والعقد قُضي على اللغة المكتوبة ونيل من ضرّتها الغاية المطلوبة

فشنَّ عليهِ ارباب الاقلام غارة شعواء ونبَّلوا رأيهُ وعدُّوهُ اسخف الآراء . ولشدة حنقهم منهُ وموجدتهم عليهِ حسبوا انهُ اوَّل مخترقٍ لحجاب العربية المصون وانهم هم اوَّل من حمى ذمارها وذاد عن حياضها . ونسوا او تناسوا أنَّ كثيرين غيرهُ طرقوا قبلهُ هذا الباب واعترضهم حماة اللغة وانصارها مدافعين مناضلين . وسيظلُّ هذا الباب معرَّضًا للقرع والطرق حتى يزول الخلاف بين الضرتين ولا يبقى اثر لهذا الفرق

وكان المقتطف كما أشار في الجزء الماضي اوّل منبّهٍ على قصور اللغة المكتوبة عن الوفاء بحاجة الكتّاب في هذه الايام ولكونهِ من اشدّ اصحابها غيرةً عليها قضى بوجوب الاحتفاظ بها وأشار بما حضرهُ حينئذٍ من وسائط توسيع نطاقها وتعميم شيوعها في الالسنة مكان اللغة المحكية . وكان هذا العاجز ممن رأوا رأي المقتطف في المناظرة الاولى التي حدثت بين "الممكن" ومناظريهِ منذ احدى وعشرين سنة وفي المناظرة الثانية التي حدثت بعد ذلك بنحو ست سنين بيني وبين حضرة نعمة افندي شديد يافث[1]

ولو أن انصار اللغة المكتوبة نبذوا من اول الامر التطرّف والمغالاة جانباً وجاروا المقتطف في الاعتدال وأقرّوا اقرارهُ بنقص اللغة المكتوبة وقصورها عن مجاراة اللغات الاجنبية وقضوا هذه السنين الطويلة في البحث عما ينبغي اجراؤهُ لخدموها خدمةً عظيمةً ولم يتركوا باب التعجّم عليها مفتوحاً الى الآن . لكنهم كانوا — عفا الله عنهم — كما رأيناهم هذه المرّة في حملتهم على المستر ولمور يقصرون كلامهم على تسفيهِ رأي من يشير باستخدام اللغة المحكية لانها قاصرة ضيقة فاسدة الخ وزاد بعضهم هذه المرة نغمةً جديدةً في طنبور الدفاع بلغ بها حدّ الاعجاز وغاية الابداع وهي ان حملة القاضي ولمور على اللغة المكتوبة مبطنةٌ بحملةٍ دينيةٍ يكرّ بها الصليب على الهلال وما اعظم ما تبلغهُ السخافة من عقول بعض الرجال

اما المقتطف فقد أراهُ الاختبار الطويل ان اللغة المكتوبة لا تزال في حاجةٍ ماسّةٍ الى ما يسد خللها ويتمم نقصانها وانّ ما اشار بهِ منذ احدى وعشرين سنة وصدّقهُ هذا العاجز في حينهِ واشار بهِ غير مرةٍ في جريدة ثمرات الفنون لم يجدِ فتيلاً ولا اروى غليلاً الا وهو شروع الاساتذة والمدرسين في مخاطبة التلامذة باللغة المعربة وتعويدهم النطق بها وعقد مجمع لغوي يحكم في النحت والوضع والتعريب . اما الاول فلأن اكثر الاساتذة لم يكونوا قادرين عليهِ لفقدان هذه الملكة منهم او لان المدارس انفسها لم تساعدهم على اتمامهِ جاعلةً التكلم باحدى اللغات الاجنبية من قوانينها الاساسية او لان التلامذة انفسهم لم يرتاحوا الى هذا الامر الذي لم يروا من ورائهِ جدوى تستحقّ ما يقتضيهِ من العناء الجزيل والوقت الطويل . وحسبوا وهم مصيبون انّ مزاولة تحصيل اصعب اللغات الاجنبية اسهل مطلباً وايسر منالاً من محاولة تحصيل ملكة التكلم بالعربية الفصحى . وهب انهم تمكنوا مع طول الايام وملازمة الجدّ والاجتهاد من تذليل الصعاب وامتلكوا ناصية التكلم بالعربية المعربة طبقاً لقواعد صرفها ونحوها ومعانيها وبيانها فهل يجنون من ذلك فائدة توازي اقل منفعةٍ يجدونها في تعلّم اصغر اللغات الاجنبية شأناً ؟

(١) مقتطف مجلد ١٢ جزء ٣ و ٥

واما الثاني اعني عقد مجمع لغوي فالفائدة منهُ مضمونة لا محالة وعليهِ وحدهُ يتوقف خلاص اللغة المكتوبة من براثن اللغة المحكية والاَّ فهي باطشةٌ بها مفترسة لها عاجلاً كان او آجلا ولكنهُ لسوء الحظ لم ينعقد بعد ولن ينعقد ابد الدهر الاَّ اذا استوفى الشرطين اللازمين لهُ وسنأتي على ذكرهما . ومن الغرور ان يتوهم البعض أن اللغة المكتوبة يمكنها اذا استتمت شروطها كلها ان تتغلب على اللغة المحكية وتلاشيها وتحلَّ محلها . ومن علل نفسهُ بهِ فقدم كدم في غير مكدم . وطمع في ما لا مطمع وراءهُ ولا مغنم . وهب أننا ارضعناها لاطفالنا مع اللبن واستطعنا ان نخرّجهم عليها في بيوتنا ومدارسنا وعقدنا لها احسن مجمع لغوي لما افاد هذا كلهُ اكثر من صدّ تيار اللغة العامية عن الطموّ عليها وابتلاعها لكنهُ ما كان قطُّ ليطمس معالم اللغة المحكية من الوجود ويدرجها في اكفان عاد وثمود . والفرق بين المكتوب والمحكيّ امرٌ طبيعيٌّ لا بدَّ منهُ في كل لغةٍ من لغات البشر ولا تقدر اعظم قوى العالم على ازالتهِ . قال المقتطف "ولقد كانت العربية المحكية تخالف العربية المكتوبة من عهد ابن خلدون وما قبلهُ ويظهر من ادلةٍ لا محل لبسطها هنا انها كانت تخالف العربية المكتوبة دائمًا" وكثيرون من الباحثين في فلسفة اللغة العربية والفرق بين المحكي والمكتوب منها لا يقفون عند هذا الحدّ من الاستنتاج بل يتجاوزونهُ الى ما وراءهُ كثيرًا جازمين بان اللغة العربية الفصحى لم تتعدَّ قط نطاق الكتابة منذ عهد نشأتها الى الآن اي ان العرب حتى في صدر الجاهلية لم يتكلموا بالعربية المنطبقة على الاحكام الاعرابية انطباقًا تامًّا بلا زيادةٍ ولا نقصان . نعم ربما لم يكن الفرق بين محكيهم ومكتوبهم عظيمًا كما هو في ايامنا هذه لكنهُ كان موجودًا ولو زهيدًا كما هو الآن بين المكتوب والمحكي في كلٍّ من اللغات الاجنبية

واذا كان هذا الفرق موجودًا في كل لغةٍ فلماذا هو في اللغة العربية اكثر منهُ في غيرها ؟ ماذا يجيب المحامون عن اللغة المكتوبة وانا واحدٌ منهم ؟ واذا صحَّ ان العرب كانوا في القديم يتكلمون اللغة المعربة او كان الفرق بين محكيهم ومكتوبهم قليلاً كما هو الارجح فلماذا حصل هذا الفرق او زاد على توالي الايام خلافًا لما ينتظر من انتشار المدارس والمطابع وشيوع الكتب والجرائد ؟ لا سبيل للجواب على هذه الاسئلة كلها الاَّ بهذا وهو ان اللغة المعربة لا تصلح ان تكون لغة تكلم ولم توضع الاَّ لتكون لغة كتابةٍ وبيان ذلك ان المتكلم من طبعهِ يطلب الاختصار في حديثهِ ما استطاع الى ذلك سبيلاً اقتصادًا في الوقت وابتغاء للبلوغ الى مقصودهِ من اقرب الطرق وأخصر التعابير والكلام المعرب طويلٌ جدًّا اولاً بسبب حركات الاعراب وثانيًا لعدم امكان الاختصار فيهِ كما في المحكي والكلمة المعربة يقتضي لفظها من

الوقت والمقاطع مضاعف ما يقتضيهِ لفظ كلمة عاميَّةٍ فالحديث الذي يقتضي سردهُ باللغة المحكية نصف ساعةٍ اقتضى بالمكتوبة ساعة على الاقل . اذًا ليس في اللغة المعربة ما في اللغة العاميَّة من الصلاحية للتكلم والمخاطبة ولذا قضى عليها قانون تنازع البقاء ان تجفوها الالسنة والشفاه. وتنبذها الافواه نبذ النواة . وينحصر استعمالها في تسويد بياض القرطاس بمداد الدواة . واذا لم يرق هذا الحكم في عين المعترض وانكر علينا صحتهُ فلا نطالبهُ باكثر من بيان العلة لنشوء اللغة المحكية واظهار السبب لحصول هذا الفرق العظيم بينها وبين المكتوبة فان استطاع اقناعنا بان لذلك سببًا آخر غير أنسبيتها اي كونها اصلح وانسب واسلس واسهل على الشفاه والالسنة من اللغة المكتوبة وافقناهُ على كل ما يدعيهِ بلا استثناء . وزدناهُ ما شاء من الشكر والثناء

ولو جمعنا ما كتب في لغتنا العربية منذ ثلثين سنة فقط عن اللغة المكتوبة واللغة المحكية لشغل مجلَّدًا ضخمًا يبلغ عدد صفحاتهِ الفًا او يزيد وقد ذهب كلهُ باطلاً وانتهى الكتَّاب في كلامهم على هذا الموضوع الخطير حيث ابتدأوا فلم يقرروا فيهِ حقيقةً ولا فصلوا خطابًا . وعلة ذلك فيما أرى تطرُّف الباحثين من انصار اللغة المكتوبة (واولهم انا) في التحامل على اللغة المحكية استسلامًا لليل والهوى او حرصًا على الاحتفاظ بالقديم او اكتفاء بالنزر القليل من التروي والامعان او خوفًا من التصريح بما يخالف الرأي العام او لغير ذلك من الاسباب الواهنة التي لا تصح ان تتخذ كلها فضلاً عن واحدٍ منها اساسًا لبناء اصغر الآراء واقل الاحكام

تطرَّفنا ما شئنا وبالغنا في صلاحية اللغة المعربة لكل مكتوبٍ ومحكيٍّ وغالينا في فساد اللغة المحكية وعدم صلاحيتها لشيء والواقع او الاختبار داحض لزعمنا مناقض لرأينا في الامرين كليهما وغاية ما يتكلَّفهُ من يتعمَّد إفحامنا أن يقول لنا " اذا كان الامر كما ذكرتم فلماذا لم يعمَّ استعمال الاولى وبطل استعمال الثانية ؟ " . والباحث العاقل المنزَّه عن الغرض اذا تساهل معنا في المناظرة وسلَّم جدلاً بعدم صلاحية اللغة المحكية — وهي على حالتها الراهنة — لأن تكون لغةً مكتوبةً لا يسعهُ مطلقًا ان يسلم معنا بان اللغة المكتوبة صالحة — في حالتها الحاضرة لان تكون لغةً محكيةً لانها غير كافية للتعبير عن كل ما يبدو لنا من الخواطر والافكار وسبب عدم كفايتها ليس نقصًا اصليًّا او قصورًا طبيعيًّا فيها بل قلة المعروف او المتداول منها عندنا . ومعلوم ان اللغة التي لا تصلح عند التكلم والتخاطب ان تقضي حاجات التفاهم التي كثيرًا ما يستعان على سدّ الناقص منها باشارات اليدين واعضاء الوجه وغيرها فكيف تصلح ان تقضيها كتابةً وهي مجرَّدةٌ عن كل واسطةٍ تعينها على ذلك

لا ريب في صحة هذه النتيجة وان كبر علينا امرها وأبينا الاعتراف بها . ومن الغريب

اننا قد نسلّم لاول وهلة بصحة النتيجة الاولى التي اثبتناها وهي عدم صلاحية اللغة المكتوبة للتكلم ونأبى التسليم بصحة النتيجة الاخيرة اعني عدم صلاحية اللغة المكتوبة للكتابة ونسى ان النتيجة الاولى لازمة للثانية ونائجة عنها اعني ان عدم صلاحيتها للتكلم ناشيء عن عدم صلاحيتها للكتابة والاّ اي لو انها كانت صالحة للكتابة لصلحت للتكلم لا محالة

ولعلّ بعضنا ولا سيما الذين برزوا منا لمقارعة القاضي ولمور لا يطيب لهم سماع مثل هذا الحديث واهون شيء عليهم ان يتهموني بالانحياز عنهم والانضمام الى انصار اللغة المحكية . ولكن ما قولهم بشهادة ارباب الاقلام انفسهم واية شهادة اخرى غيرها يقبلون اذا رفضوها ولم يصدقوها . فالى جهابذة الكتبة البالغين في صناعة التحرير ابعد غاية وارفع مرتبة نرفع هذه المسألة ونستحلفهم واحداً واحداً بالمسغبة والمتربة وشظف العيش الناتج من شق تلك القصبة أن يجيبونا بصدق وإخلاص على هذا السؤال : هل كتب احدهم مرةً مقالةً او نبذة او كتاباً تصنيفاً او تأليفاً او تعريباً وهو واثق كل الثقة انهُ مثّل لقارئ كتابتهِ صورة المعنى التي رسمها في ذهنهِ تماماً كما يمثلها الكاتب الانكليزي او الفرنسوي او غيرهما من كتّاب اللغات الاجنبية : هل اكمل مما كتبهُ فصلاً بل صفحةً بل سطراً دون ان اخذ بعنان اليراع وثناهُ عن الجري في ميدان الطرس وهبّ يستحثهُ ذاكرتهُ و يعصر يانوخهُ طالباً كلمةً اوكلمات يتخذها قالباً لسبك المعنى السائل في دماغهِ على حرارة التصوّر والتخيّل و يجعلها صفيحةً ينقل عليها الصورة البديعة المرسومة في الذهن بيد الاجادة والاتقان واذ لا يرى في محفوظهِ من كلمات اللغة المكتوبة ما يشفي الاوام ويني بالمرام ويخاف ان يستعين بلفظة من لغة العوام لم يحكها ابو زيدٍ ولا رواها ابن هشام يضطرُّ رغم انفهِ الى العدول عن ذلك الرسم البديع الجميل واستبداله بما يوافق اللفظ العربي الفصيح وما اسخف المعاني الخاضعة لاحكام اللفظ

ومعلوم ان مواضيع الكتابة اكثر من ان يحيط بها عددٌ او يجمعها احصاء ولكن زهرة ربيعها وعروس مواضيعها وواسطة عقد بديعها هو الوصف. فمن من ساداتنا الكتاب التحاريرفرسان الانشاء والتحرير وابطال اليراع المغاوير حاول مرةً وصف شيء مما في القبة الزرقاء او على سطح الغبراء او بين الارض والسماء او في عالم السرّ والخفاء . واستطاع ان يمثلهُ لعين القارىء او لأذن السامع تمثيلاً حقيقياً يستوي فيهِ العين والاثر و يستغني مطالعهُ عن المشاهدة وسامعهُ عن النظر

من منهم اذا دخل مرقصاً او نادي انسٍ او محفل طرب واراد ان يكتب عنهُ يقدر ان يصف باللغة المكتوبة كل ما وقع عليهِ نظرهُ وشاهدتهُ عيناهُ في ذلك المكان من المجالي

والمظاهر والمشاهد والمناظر. وكم يرى في ذاكرته من الكلمات العربية الفصيحة التي ترسم في ذهن القارئ الصورة الحقيقية لما رآهُ في ذلك المشهد على الرجال والنساء من الملابس المتعددة الاشكال والمختلفة الانواع وما في القاعة وعلى "البوفه" و. و. الخ. او يظنّ ان القارئ يروبه السراب و يشبعهُ كشي الضباب ويكفيه من الوصف ان يقال لهُ "وكان الرجال قائمين بالملابس الرسمية والسيدات بافخر الحال واثمن الحلى والقاعة مفروشة باغلى الاثاث وانفس الرياش ومزدانة بالمصابيح والانوار والرياحين والازهار والبوفه حافلة بالذّ الاطعمة واطيب المشروبات". واذا اقترحنا على ابلغ كاتب عربيّ في هذه الايام ان يصف لنا "اوضة" مقعد او غدع نوم او غرفة طعام وصفاً مدققاً يشمل كل ما فيها من الامتعة والادوات المصنوعة من خشب وزجاج ومعدن وحرير وصوف وقطن وغير ذلك او يصف ثياب سيدة من السيدات وحلاها فهل يستطيع اجابة الاقتراح تماماً دون ان يستعين باللغة المحكية ؟ ببعض كلامهِ بل بكلهِ

جلست يوماً اطارح احد مشاهير العلماء البحث في هذا الموضوع فاعتذر عن قصور كتّابنا بقولهِ "انّ عدم تعوّدهم التدقيق في وصف مثل هذه الامور يحول دون مجاراتهم لكتاب الافرنج فيهِ بخلاف غيرهِ مما تعوّدوا وصفهُ كالجمال مثلاً فانهم بارعون جدًّا في وصف القامة والشعر والعينين والفم والعنق وغير ذلك مما يجيدونهُ غاية الاجادة ويجلّون في ميدانهِ على كتاب اللغات الاجنبية". وعندي ان هذا اذا صحّ فهو بعض السبب لا كلهُ. وهب انهم مارسوهُ حتى اصبح ملكةً راسخةً في اذهانهم فماذا يفيدهم ذلك ما داموا في حاجةٍ الى كلامٍ يعبرون بهِ عن موصوفهم ولا يجدون متنهُ ما يجدونهُ عند ارادة التعبير عن اوصاف الجمال

ثم ان حاجتنا الى اللغة المكتوبة ليست مقصورة على الوصف ولا هي محصورة في الادب والمدح والهجاء والتهنئة والرثاء والفخر والحماسة كما نراها هذه الايام في صحف الاخبار وكتب الادب بل تتعدى الى ما هو اهمّ جدًّا من جميع هذه المذكورات — الى العلوم والصنائع — الى ما لا يُحصى من المسميات الطبية والكيماوية والفلسفية والفلكية والهندسية والصناعية والتجارية والزراعية والبخارية والكهربائية وغيرها مما يحتاج الى عشرات الالوف من الكلمات ولا نرى لهُ في لغتنا المكتوبة الآن غير كلتين فقط وهما "ادوات وآلات"

فالمجمع اللغوي الذي نحتاج اليهِ ينبغي ان يتألف من رجال اكفاء لهذا العمل الخطير يناط كلٌّ منهم باحصاء كلمات فرعٍ من العلوم ونوعٍ من الصناعات بنقلها عن اربابها العاملين فيها ثم ينظر اعضاء المجمع كلهم معاً في كل قسم من هذه الكلمات على حدةٍ فما وجدوا لهُ في

اللغة العربية لفظًا يجيء بمعناهُ او يقرب منهُ ويسهل تعميمهُ وضعوهُ لهُ واحلوهُ محلهُ وما لم يجدوا لهُ شيئًا من ذلك عربوهُ وادخلوهُ وبعد ما يفرغون من عمل الوضع التعريب يطبعونهُ ويوزعونهُ ولا يلبث ان يعمّ استعمالهُ وتشمل فائدتهُ

والاّ فاللغة المكتوبة لا توفي التيار المثلث المندفع عليها من اللغة المحكية واللغة الفرنسوية والانكليزية بمجرد قولنا انها مهبط البلاغة والفصاحة ومجلى الحسن والملاحة وربة الاستعارات والكنايات وشامة في وجنة اللغات. وان اكتفينا بهذا كما هو ظاهر من غارتنا على حضرة القاضي ولور اصبناها باساءة تمحو كل احساننا اليها . واضعناها من حيث اردنا المحافظة عليها

القاهرة اسعد داغر

منزلة الشعر من التاريخ

(٢)

جرّنا البحث الى امرىء القيس وهو زعيم الشعراء بلا منازع ومليك البلاغة بلا مضارع ومن شعر عبيد يُعرف ان ابا امرىء القيس كان ملكًا على اسد وان جدّتهُ تدعى ام قطام وانهُ قصد ملوك غسان مستنصرًا على عداهُ . واذا اردنا اثبات ذلك من شعر امرىء القيس وجدنا جميعهُ مع تفصيل اوضح واتم كما ترى في البيتين التاليين

اقرّ حنا امرىء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام
وانا الذي عرفت معد فضلهُ ونشدت عن حجر ابن ام قطام

قال شارح ديوان امرىء القيس اراد بنشدتُ رفعت ذكر حجر ابن ام قطام وبديهي ان الولد النجيب يرفع من ذكر ابيهِ . فدلّ قولهُ على انهُ ابن حجر ابن ام قطام

واذا اردنا المقابلة بين قولي عبيد وامرىء القيس قلنا

عبيد	امرىء القيس
يدعو خصمهُ مُرّيء القيس وهو مصغر امرىء القيس	يدعو نفسهُ امرأ القيس وهو ينتسب الى كندة
يقول ان قتيل اسد يدعى حجر ابن ام قطام	يدعو اباهُ حجر ابن ام قطام
يقول ان قتيل قومهِ من كندة	يقول ان بني اسدٍ قتلوا اباهُ

فالرجل الذي يتكلم عنهُ عبيد هو بلا شك امرؤ القيس الشاعر المشهور . ومن ثم نستنتج ان حجرًا كان ملكًا على اسدٍ وانهم خلعوا نيرهُ فكبح جماحهم اولاً ثم شدّوا عليهِ فقتلوهُ وقام